كتاب أحلام فى التربية

للاستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

قرأت هذا الكتاب منذ أسبوعين ، وقد وضعه مؤلفه مستر بورنز منذ حوالى عشرين سنة، وقدمه الدوز هكسلى حفيد هكسلى العظيم ، فرأيت أن ألخصه لقراء الرسالة الغراء .

الكتاب طريف الموضوع ، شائق ، سهل الأسلوب إلى حد بعيد ، يجعل القارىء المتوسط الذى لم ينل حظاً كبيراً من علوم الفلسفة والتربيـة ، يقبل على قراءته بشغف ولذة ، وذلك لأنه أقرب إلى القصص والأساطير منه إلى كتب التربية والتعليم . ومما يساعد على فهمه ويغرى بقراءته سهولة تعبيره واتساع أفق الخيال فيه وما فيه من طرائف جديدة ، وقد ألبس المؤلف الجد ثوب الهزل لجعله قريباً إلى الأذهان سهل المطالعة للكثيرين .

إن الكاتب يحس كما يحس الكثيرون منا ، أننا ندور فى حلقـة مفرغة إذ لا ندرى لماذا نبعث بأبنائنا إلى المدارس وإن كنا نبعث بهم على أى حال ، وذلك لأن المدارس التى جعلت لإعدادهم للحياة السعيدة ، هى فى الواقع كثيراً ما تجنى عليهم بفساد أنظمتها التى تذهب بكثير من استعداداتهم وتبر ملكاتهم وضياع مواهبهم ، لأن الحياة فيها جحيم وقوده أطفالنا الأبرياء .

إن المؤلف يرى أن النظام المدرسى وجد على أنه أداة لحياة صالحة سعيدة ، ولكن الآية انعكست وصارت مفسدة لكثير من الأطفال . والعجيب أننا لا ندرى ماذا نفعل لننقذ أطفالنـا من هذه المأساة التى تمثل أمام أعيننا ونشاهد فصولهـا تمرض علينا ونحن مكتوفو الأيدى . هذا ما يدركه من يقرأ الكتاب قراءة بحث ودرس .

أما موضوع الكتاب فقد تخيل الكاتب ، أن مؤتمراً للتربية والتعليم عقد فى بقعة من الأرض ، ودعى إليه كثير من سكان الكواكب السيارة المختلفة وقد أرسل كل كوكب مندوبه إلى هذا المؤتمر من أساتذة وشيوخ وسيدات ومن مخلوقات أخرى لا شبيه لها ولم ترها أعيننا، منها الذكر والأنثى، ومنها ما هو خليط بين الاثنين ، وقد انتظم هـؤلاء جيماً غرض واحد هو بحث مناهج التعليم والمقارنة بينها فى مختلف الأنحاء ، وتعديل ما يحتاج إلى تعديل لتأتى بالغرض المنشود الذى يسعى إليه العالم أجمع .

ولما افتتح المؤتمر أسندت رئاسته إلى مخلوق أرضى ، فرحب بالأعضاء ، ثم أتى بموجز لتاريخ التعليم فقال :

إنه عرف فى أول أمره على أنه أداة لتعليم مواد ثلاث : هى القراءة والكتابة والحساب ، وهـذا غرض متواضع لا يتفق مع جلال التربية والتعليم ، إذ الأحرى بمثل هذا الغرض أن تكون أداته أول قيمه من التربيه والتعليم . فاذا كانت التربيـة والتعليم لا غرض لهما سوى أن يكونا أداة لتعليم هذه المواد الثلاث فما أقل شأنهما وأسوأ حظهما ، ثم قال :

إن الغرض من التعليم أجل وأشرف من هذا بكثير ، والذى يجب أن يهدف إليه التعليم هو : الفلسفة وعلم النفس والسياسـة وعلم وظائف الأعضاء ، لأن هذه الأشياء هى أساس حياة الإنسان وسعادته ، فعلى مقدار فهمه لها ومعرفة دقائقها تتوقف سعادته فى حياته ويكون نفعه للانسانية ، فيجب ألا تكون حياة الإنسان هباء فى هباء ، لأنه لا يستطيع أن يتصل بالآخرين اتصالاً وثيقاً وأن يحيا حياة فياضة بالمعانى السامية والغايات النبيلة إلا إذا فهم الجماعة الإنسانية ، والأحوال الاجتماعية فهما صحيحاً ، ولا يتأتى له ذلك إلا إذا كان له قسط وافر من هـذه العلوم التى يجب أن تكون الغرض من التعليم .

ولكن هذا لم يرق مندوب (المريخ) فاعترض قائلا : ما هى الفلسفة وما هو علم النفس وما هى الفائدة المرجوة منهما حتى يكونا الغرض من التعليم ؟

ولكنى أرى أن التعليم والتربية، أسمى من أن يكونا أداة لمثل هـذه المواد ، بل يجب أن يوضع التعليم للوطنية والأخلاق ، إذ أنهما أساس الحياة . ويصر مندوب المريخ على أن يكون عملياً فى كل شىء يقرره ، فتراه يرفض تدريس الجغرافية مثلا ، لأن المدارس تدرس الجغرافية من أول نشأتها ولم تمد على العالم بشىء إنه يريد أن يستقصى الأمر بطريقة علمية أكثر من ذلك فائدة وأدوم ثباتاً ، حتى أنه قال . لماذا ندرس الجغرافية ! وماذا يضيرنا لو لم ندرسها ؟ وغير ذلك من مثل هـذا التساؤل عن كثير من المواد الدراسية .

أما مندوب (المشترى) فانه يعقد مقارنة بين تربية الأطفال وبين الصناعات الأخرى من حيث قدرة الأطفال والنوع الذى يناسبهم من التعليم ، فقال . لقد أصبح العلم متدخلا فى جميع مشروعاتنا وأعمالنا ، بمعنى أننا لا نقدم على عمل ولا نخطو خطوة فى حياتنا مالم يكن العلم رائدنا ومرشدنا ، ففى مصنع الأحذية مثلا، نختبر الجلود ونبحثها بالطرق العلمية لنعرف مصادرها ولنرى من أى نوع هى ، وهل هى من النوع الخشن أو الجيد ؟ وهل كانت الحيوانات التى أخذت منها هزيلة أم سمينة ؟ وغير ذلك .

فلماذا لا نتبع هذه الطريقة مع أطفالنا فنبحث بيئاتهم وعائلاتهم ونستقصى تاريخهم ونتتبع منشأهم لنرى هل من المتيسر لهم أن ينموا نموا طبيعيا أم هم معرضون للامراض المختلفة من جسمية واجتماعية وخلقية . إن المدرسة صنو المصنع سواء بسواء ، فمصنع الأحذية مثلا يبدأ بالجلود وينتهى به المطاف إلى الاحذية الكاملة المتقنة ، وكذلك المدرسة فانها تبدأ بالطفل الصغير وتنتهى بالرجل الناضج الكامل العقل والتفكير . فالواجب علينا أننا مادمنا نستخدم مختلف العلوم فى الصناعات ، أن نفعل مع الاطفال مثل هذا حتى تأتى بالثمرة المرجوة ... ثم قال :

مما جعلنى استلقى على قفاى من الضحك ، أنه فى أثناء عبورى من المشترى إلى هنا ، كنت أتسلى بقراءة شىء عن تعلم التعليم سابقا ، فاستوقف نظرى مايسمونه نظام البكالوريا ، وأن هذه الشهادة تعتبر جواز المرور لحاملها . يالسخافة ! أيجعلون الشهادات مقياسا لكفاءات المتعلمين والرجال المفكرين ، إن وباء الحمى القرمزية لم يكن أكثر شرا من ذلك النظام الفاسد فى تلك العصور المظلمة والعوالم المتأخرة .

إنه لابد لكل طالب فى عالمنا (المشترى) من فرصة يسيح فيها عاما كاملا ليرى الشعوب الأخرى ويشاهد أخلاقها ويطلع على أنظمتها ويختبر طرق حياتها ، وثقافة الانسان عندنا لاتتم إلا إذا أقام بهذه السياحة واستفاد منها وعمل بما رأى فيها من خير وتجنب فيها من شر .

ثم تكلم مندوب الزهرة وأبدى عجبه من اهتمامنا باعداد المواد واهمالنا الطفل الذى يجب أن يكون الاهتمام به هو قبل كل شىء فقال .

إن محور التعليم عندنا ليس المواد المختلفة كالجبر والهندسة واللغات وغيرها ، ولكن المحور الحقيقى الذى نوليه كل عنايتنا هو الطفل نفسه ، فلا يهمنا أن تذهب هذه العلوم إلى حيث شاءت ولكن ليبق لنا الطفل . إن هذه المواد جميعا قد وجدت من أجل الطفل ، ولم يوجد الطفل لها ... ثم قال

لقد كان الباحثون فى التربية قديما ، يجعلون الطفل فى المنزلة الثانية بعد المواد ، وما ذلك إلا لضيق تفكيرهم ، حتى أن المعلم الذى كان يبدى اهتماما ظاهرا بالاطفال لايساوى فى نظرهم شيئا . أما اليوم فاننا يجب أن نجعل الطفل فى المرتبة الأولى وأن نوليه كل عنايتنا .

ثم ذكر حقيقة قد أغفلناها نحن وطال إغفالنا لها حتى كدنا ننساها كل النسيان ، وذلك أننا نحمل الطفل من الدروس أكثر مما يطيق ، ونعطيه من المواد فوق مايحتمل ، فاذا عجز عن تحملها أضفنا إليه أعمالا أخرى فنأتى له بالمدرسين الخصوصيين ونحبسه مع كتبه فى حجرة بعيدة عن الآخرين ، ونضطره إلى البقاء حبيسا حتى تعتل صحته البدنية وتختل قواه العقلية وتفسد اخلاقه ، وربما أدى به الحال إلى السير فى طريق الفساد والاجرام دون أن يبلغ ماحبس من أجله وهو الشهادة المرجوة والنجاح المأمول .

إن الشهادة ليست بذات قيمة كبيرة ولا تستحق منا هذا الاهتمام الذى يجعلنا نسلب أولادنا صحة أبدانهم ونفقدهم عقولهم ولو كان هذا من أجل علوم الدنيا مجتمعة .

وقد قال المندوب ! إننا لم نترك حجرا على حجر فى هذه الناحية الا قلبناه ونقبنا حوله ، حتى أصبحنا نؤمن ايمانا كاملا بأن انما النفس والروح لاينم إلا على انما الجسم — والمثل يقول العقل السليم فى الجسم السليم — ويقول : أطعم الجسم العارى هواء نقيا وشمسا مشرقة ، تكن بذلك قد غذيت الروح وطهرتها من الشوائب ، أما لو أهملت الجسم فانك تقتل الروح وتفسدها .

ثم عرض المؤلف لكثير من آراء مندوبى كثير من الكواكب التى تخيلها قد حضرت المؤتمر لهذا الغرض النبيل ، لاداعى لذكرها هنا حيث أن كل المناقشات كانت تنصب على هذه الأغراض المهمة .